

في ما بين "أسباب النزول" و "النزعة التاريخية": تطابق أم تلبس؟

أ/ لخضر سباعي ، جامعة وهران 2 - إشراف أ.د. عبد اللاوي عبد الله

لا يكاد المتتبع للدراسات القرآنية المعاصرة يخطئ رصد ذلك الخيط الناسج لوعيمها و الناظم لنصوصها ، متمثلا في " التاريخية" التي تحولت لدى رواد هذه القراءات إلى براديجم تأويلي قاهر يؤطر عمليات الفهم و القراءة وإنتاج المعاني و صوغ التمثلات المتعلقة بالنص القرآني و ما يثار في فلكه من مسائل فكرية و عملية، فإذا كان من الطبيعي أن يلتبس ذات المتتبع و معه صنّاع هذه القراءات لتلك النزعة أصولا في المنجز المنهجي و المعرفي الذي راكمته العلوم و الفلسفات الغربية من الحدائث إلى ما بعدياتها ، فإن ما يثير جدلا لدى بعض متلقي هذا النوع من الاجتهادات التي تطال النص القرآني هو تلك المداخل التراثية التي يسعى عبرها دعاة تثوير الدراسات القرآنية لتسويغ النزعة التاريخية و ما ينجر عنها من مقولات مثل نسبية المعنى و انفتاح الفهم و التأويل على اللانهاية ، و هي مقولات يستشعر مروجوها قبل المتلقين لها أنها ذات مفاعيل و مؤديات خطيرة على الوجدان الإسلامي .

لما كان هذا الحيز لا يسع التطرق لجميع هذه المداخل التراثية التي يستأنس بها أمثال حسن حنفي و محمد أركون و نصر حامد أبو زيد و عبد المجيد الشرفي و الطيب التزني في دروب النقد الديني بغاية توطين النزعة التاريخية في حقل التعاطي مع النص القرآني تدبرا و سلوكا، فإن ما تتخذه هذه المساحة موضوعا للقول هو "أسباب النزول" باعتبارها أداة مفهومية يمكن . حسب تقديري لمأمولهم . أن تمثل نواة صلبة لنزعة تاريخية كلاسيكية عتيقة ينتدبون في سبيل استظهارها و استحياؤها أقصى الجهود ، و بهذا المدخل . إلى جانب مداخل أخرى ، على غرار نظرية المقاصد و علم الناسخ و المنسوخ و المكي و المدني و التنجيم و مقولة خلق القرآن الاعتزالية . يعمد هؤلاء إلى تعضيد مشاريعهم النقدية بركائز تراثية تخفف عنهم وطأة النقد و الرفض الذي يستشعرونه، فما الذي ارتضاه القدامى من و ل "أسباب النزول"؟ ما هي السياقات و الملابسات التي أدت إلى استوائها علما ذو وظيفة منطقية توجيهية للجهد التفسيري؟ ثم ما الذي

يُرتضى لهذا الاستئناف في النظر الذي تشهده مقولة "سبب النزول" في الدراسات القرآنية المعاصرة؟ وما الذي يعني بالنزعة التاريخية؟ وما هي مسوِّغات تركيب معناها على أسباب النزول؟ وما مدى مشروعية استثمار هذا العلم التراثي في خضم الصراع التأويلي المحتدم بين القراء الجدد وخصومهم؟.

"أسباب النزول" معناها ودواعي التصنيف فيها

البحث في معنى ودلالة هذا المفهوم الذي يشكل موضوع أحد العلوم الإسلامية العتيقة التي تشكلت على التماس مع النص القرآني يحيلنا من جهة احتوائه على لفظة أسباب . إلى مشكلتين :

- الأولى فقهية أصولية وهي مشكلة "تعليل الأحكام الشرعية"¹ التي تطرح في ميدان الفقه وأصوله.

- الثانية فلسفية عقدية ايستمولوجية وهي "مشكلة السببية"² بوصفها إحدى المشكلات العقدية والايستيمية التي تصدّى لها فلاسفتنا ومتكلمينا وحتى فلاسفة العلم المعاصرين .

ولعلّ الرابط بينهما يتمثل في استشكال القابلية للتفسير والإدراك والقطع باليقين التي تُثار أمام العقل البشري وهو بصدد النظر في ظواهر وموضوعات تصطدم بعائق ميتافيزيقي أو فلسفي، وتمثل حوادث نزول آيات القرآن هنا مثالا على هذه الموضوعات.

وإذا ما تجاوزنا المواقف المختلفة التي تستثيرها المشكلتين السابقتين وتوقفنا عند الدلالة اللغوية لكلمة "سبب" طلبا للدلالة الاصطلاحية لأسباب النزول عند علماء القرآن والمفسرين، فإننا سنجدها ترد في لسان ابن منظور مقابلا للحبل الذي يُتوصل به إلى موضع أو حاجة ما ، وفي تعريفات الجرجاني "السبب هو اسم لما يُتوصّل به إلى المقصود"³ ، كما يجري استعمال الكلمة في مواضع أخرى مرادفا للطريق والوسيلة ، وهو ما يجعلنا نقف على أن المعنى الجوهرى للكلمة لا يتجاوز الوصل والربط أو الارتباط ، وقد وردت هذه المادة في القرآن اثنتا عشر مرة، تسعة منها بصيغة "سبب" وثلاثة بصيغة "أسباب".

أما "النزول" فيحيل في الاستعمال العربي إلى الانتقال من الأعلى إلى الأسفل ،
وضده الصعود، ويكشف البحث خلوّ القرآن من هذه الصيغة بينما ترد
مشتقاتها من قبيل الفعلين "نزل" و"أنزل" ، والاسم "تنزيل" في مواضع كثيرة،
ويسجّل "بسام الجمل" أن هذه المواد اللغوية وردت في القرآن مقترنة بالماء و
الكتاب⁴ ، ولعل المشترك بينهما هو الإحياء والإنماء، والسؤال الذي يطرح هنا :
لماذا استقرت لغة علماء القرآن على لفظة النزول بينما أهملتها لغة القرآن
نفسه؟

قد نتلمس المخرج من هذا السؤال . مبدئياً . عبر مسلك التفاوت النحوي و
الدلالي بين النزول و التّنزيل و الإنزال ، بالقول أن الزيادة في المبنى زيادة في
المعنى ، غير أن القرائن النصية القرآنية يمكن أن تقدم مسوّغا أقوى لهذا
التمييز والاختيار التعبيري لدى القدامى، باعتبار أن القرآن نفسه يفرّق بين
التنزيل والإنزال، وهو الذي خصّ نفسه "بالتنزيل"⁵ بينما ذكر الكتب السماوية
الأخرى بلفظ الإنزال دون التنزيل، باعتبار فارق التنجيم الحاضر مع القرآن و
الغائب مع غيره من الرسالات التي نزلت دفعة واحدة، وهو أيضا الذي يفرّق بين
الإنزال و النزول في قوله تعالى " بالحق أنزلناه و بالحق نزل"⁶ .

بناء على ما سلف يتضح أن ما سوّغ للقدامى تعبير "أسباب النزول" هو
خاصية التنجيم التي لا يمكن فهمها و تتبعها إلا في استحضر الدواعي التاريخية،
الفردية و الاجتماعية، الفكرية و النفسية و الاقتصادية التي تقوم مقام
(الأسباب) في فهم ظاهرة الوحي لما انقضى زمنه واستوى نصا مغلقا، وعليه
يكون علم أسباب النزول هو العلم الذي يضطلع بتحقيق هذه الحاجة الملحة .
هو الحبل الذي يُغلق به المفسّر لبلوغ المرام.

أهمية علم أسباب النزول

تعتبر مرويات علم أسباب النزول مادة ذات أهمية بالغة لارتباطها المباشر
بعلم التفسير بما هو العلم المركزي للعلوم القرآنية ، وهو الذي اضطلع منذ
عهوده الأولى حتى الآن بمهمة بتوجيه النص لأداء المعنى الذي يتحقق به ومعه
التمثل الأمثل لعقائد و شرائع الإسلام، وكفينا دليلا على هذا الارتباط تلك

الوظيفة الايستيمولوجية الاستدلالية التي تحتلها هذه المرويات في مظان كتب التفسير، يُثبت ذلك بالرغم من أن هذه المرويات بوصفها مادة تاريخية لم تكن على درجة من الضبط والدقة معها تكون هوة الاختلاف وحدثه أخف مما حصل ويحصل بين المفسرين .

إذا كان من غير المعقول سحب الظنيّة على جميع ما يرويه علماء القرآن في باب أسباب النزول فإن احتمال تسرب الوضع والتلفيق والخطأ داخل هذه الدائرة من المعرفة التراثية يبقى قائما على ضوء أنماط مختلفة من التحليل و النقد ، لا سيّما تلك التي اضطلعت بالكشف عن السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية التي أطرت تشكل وتبلور هذا العلم واستثماره داخل المدونة التفسيرية الكلاسيكية والمعاصرة.

بهذا الصدد ينبغي التنويه إلى أن الإلماع إلى ظاهرة الاختلاق والتدليس في مرويات الحديث المتعلقة بأسباب النزول لم يكن من بنات أفكار المحدثين ممن تعاطوا مع مباحث علوم القرآن ، بل وُجد إقرار لدى المصنفين الأوائل بحصول هذه الشناعة⁷ ، بل أنه بإمكاننا القول أن تلك الظاهرة الخطيرة شكلت أحد الدواعي الأساسية للتصنيف في الموضوع كما سيأتي.

عوامل نشأته

عندما يتعلق الأمر بظاهرة فكرية أو ثقافية كموضوعنا يكون الفصل بين عامل وأخر مسألة منهجية ليس إلا ، إذ أن الأمر يتعلق بظواهر يلتبس فيها العلمي بالإيديولوجي ، مع ذلك نجد بعض الاجتهادات و مع إقرارها بالتداخل تفصل بين عوامل ثقافية ومعرفية وإيديولوجية لنشأة هذا العلم.

العامل الثقافي: ويحدده "بسام الجمل" في ذلك الوضع الثقافي الذي آلت إليه الأمة الإسلامية غداة انقطاع الوحي واتساع رقعة الفتح الإسلامي ، فضلا عن تطور التعامل مع الدين والنص القرآني تحديد ا ، في ظل هذا الظروف نشأت الرغبة في استعادة التجربة الفذة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت مجالس القصاصيين والإخباريين والوعاظ إطارا لتلك الاستعادة⁸ ، ونتيجة للانزلاقات التي عرفها عمل القصاص تعلقت أساسا بتأبطهم لغايات غير علمية ، وحصول

توتّرات مطّردة في مروّياتهم لم تكن أسباب النزول فيها معدومة الحظ. توفرت هذه الأرضية الثقافية التي شكّلت الدعامة التي انتش فيها الاهتمام بأسباب النزول باعتباره واقعا في صلب تجربة النبي مع الوحي.

العامل المعرفي: وهو الذي يرتبط بالتطور الطبيعي في طبيعة الإيمان ، حيث صاروا لمسلمون بفعل ابتعادهم عن الزمن النبوي و العهد الأولى للخلافة ينزعون نحو المسألة العقلية لمحتويات الإيمان و" التفكير في الدين وإعمال النظر في القرآن وقد استوى مصحفاً، أي نصا مكتوبا ضبطت مادته ضبطا نهائيا " ⁹ ، و قد أثّرت في هذا السياق مشكلة ترتيب السور القرآنية خاصة وأن الترتيب السائد لم يعتد بتاريخ النزول، فضلا عن ندرة القرائن اللغوية النصية الصريحة المحددة لزمن نزول الآيات ومناسباتها، وقد مثلت هذه الندرة عائقا تقنيا في الاهتمام إلى سبب النزول.

فضلا عن ما تقدم ثمة مشكلة نحسبها ذات طبيعة معرفية أيضا ، وهي التي ترتبط بالتعارض الظاهري الموجود بين كثير من آيات القرآن ، ولما كانت المتطلبات الدينية والاجتماعية والسياسية و المنطقية تقتضي رفع هذا التعارض ، فكان المسلك إلى ذلك هو مقولة النسخ التي لا يمكن أن يتم فيها القول من دون ضبط المسطرة الزمنية و السببية التي تم فيها النزول.

العامل الأيديولوجي: إذا ما أغفلنا التداخل الذي أشرنا إليه سابقا بين ما هو معرفي وما هو سياسي ، فإننا نحدد العامل الأيديولوجي يتمثل في الوظيفة الإستعمالية التي انعكست لدى علماء القرآن وهم بصدد التصنيف في أسباب النزول ، بحيث كانت هواجس الانتصار للفرقة و المذهب العقدي مبعثا على إيجاد السند التاريخي داخل دائرة مروّيات النزول ، ويتبين لنا هنا أن بعض التفاسير اضطلعت بوظيفة تبريرية لانشدها إلى طلب التأييد لمقالات المتكلمين وذلك بواسطة علم أسباب النزول.

نخلص مما سبق أن علم أسباب النزول كما مارسه القدامى لا يعتمد مجرد الرواية بل يمتد إلى استعمال العقل في الترجيح وملاً الفراغات الحاصلة عن غياب الآثار النصية ، و أن ما وقفنا عنده من عوامل تشكّله تعتبر في ذات الوقت

عوائق حادة ومعضلات عالقة في مسار الفكر العربي الإسلامي ومراحل انتقاله ، لا سيما وأن الأمر يتعلق بعلم جاء من أجل تحقيق الانتقال من الشفهي إلى المدون ، وتلك مهمة تعترضها بعوائق ايديولوجية وإيديولوجية جمّة ، نذكر من أصدائها التراثية ما يلي:

.الاختلاف بين العلماء في صحة الروايات وقبولها وتأويلها .

اختلافهم حول تحديد ما نزل من آيات القرآن ابتداء (من دون داعي تاريخي أرضي) ، وما نزل منها بسبب (رغم إقرارهم بأن النزول الابتدائي كان أكثر من النزول المسبب)¹⁰ .

. اختلافهم بشأن النزول المتكرر لبعض الآيات، و حول الناسخ والمنسوخ، والمكّي والمدني.

وهكذا تكون هذه المسائل على درجة من الحساسية على صعيد تخريج المعنى من النصوص، مما يجعل "أسباب النزول هي سلاح في غاية الخطورة، يمكن أن تنفخ بالمعنى في جميع الاتجاهات" ¹¹ ، ولعلّ رواد القراءات المعاصرة يصيبون العصب الحساس في التراث حينما يستأنفون القول في مسائل إشكالية من علوم القرآن ، من قبيل "أسباب النزول" محاولين فهمها على ضوء الاختيارات (الأكراهات) المنهجية العلمية والفلسفية المعاصرة، فهل أقر علماء القرآن بطرح مفهوم أسباب النزول "نزعة تاريخية" فعلا؟، أم أن الأمر لا يتعلق سوى بتطويع هذا المفهوم التراثي لأداء وظائف إيديولوجية مضمرة؟

من أسباب النزول إلى التاريخية؟.

في معنى التاريخية: إذا كنا لا نجد أدنى صعوبة في إحالة هذا المصطلح في الاستعمال العربي إلى "التاريخ"، واعتبار اللاحقة (ية) دالة في تقليدنا اللغوي على النسبة أو النعتية أو المذهبية، ويكون نفس الحكم منطليا على (isme) أو (ité) في historicisme و historicité¹² على التوالي عندما يتعلق الأمر بالمقابل الفرنسي للمصطلح ، فإن المعاني المرتضاه له في اصطلاحات الفلاسفة والباحثين تثير بعض الالتباسات ، إذ بالرغم من أن التاريخ . بوصفه الواقع العياني الذي

تجسده الإرادة البشرية بمختلف أبعادها في إطار زمكاني مخصوص . يشكّل الجوهر في مختلف المواضيع والمقامات التي يتم فيها توظيف هذا المصطلح في السياق الثقافي الغربي أو العربي ، فإننا نجد اختلافا كبيرا في مداخله كما في مخارجه عند دعائه و المعترضين عليه على حد سواء.

لو نتجاوز مؤقتا التفرقة التي يقيمها أركون بين التاريخانية والتاريخية ، و نبحث عن لحظة ميلاد التاريخية(كرؤية و كمنهج) في السياق الثقافي الغربي فإننا سنجدها مرتبطة بالتحول الذي أحدثته "التاريخ النقدي بصفته علما شاملا داخل العلوم الاجتماعية وعلى البحث الفلسفي" ¹³ وذلك مع بداية القرن الثامن عشر، بحيث تبلورت "التاريخية" في هذا السياق رؤية و منهجا تفسيريا مناهضا للرؤية التي كرست حضور القوى الغيبية في صناعة التاريخ ، وتؤكد الرؤية التاريخية على مركزية الإنسان في توجيه التاريخ و على نسبية الحقيقة التاريخية.

على مستوى المعاجم يذكر أركون مستندا إلى لاروس الكبير للغة الفرنسية أن أول ظهور للكلمة كان بتاريخ 6 أفريل 1876 في مجلة critique ، و كان الأمر يتعلق حينذاك بـ " صياغة علمية مستخدمة خصوصا من قبل الفلاسفة الوجوديين للتحدث عن الامتياز الخاص الذي يمتلكه الانسان في انتاج سلسلة من الاحداث و المؤسسات و الاشياء الثقافية التي تشكل مجموعها مصير البشرية" ¹⁴.

من العلامات البارزة التي يذكرها . هاشم صالح . في مسار هذا المفهوم يأتي فيكو(1744.1668) الذي أكد على أن البشر هم الذين يصنعون التاريخ و ليس القوى الغيبية كما يتوهمون ، فالتاريخ . حسب . بشري من أقصاه إلى أقصاه" ، أما هردر(1744 . 1803) الذي اشتهر بكتابه النسبية التاريخية ، أكد فيه رفض فكرة المطلقية التي تدعها بعض الشعوب لتراثها ، وبالتالي كل تراث هونسي، كما يذكر ديلثي(1833 . 1911) الذي انتقد المنهج الميتافيزيقي و أراد أن يحل الموقف العلمي محله ¹⁵ و استمرت التاريخية بوصفها مستندا للتأويل و الفهم مع أقطاب الهيرومنوطيقا (هيدغرو و غادامير و ريكور) ، ففي عند غادامير تعبير جدلية الراهن و التاريخ من خلال استمرار التاريخ في الراهن.

عمى التاريخانية و بصيرة التاريخية عند محمد أركون

يفاضل داعية التاريخية(أركون) في الدراسات القرآنية بين التاريخية historicité والتاريخانية historicisme ، لتكون هذه الأخيرة هي لحظة متخلفة إبيستيميا مقارنة بالتاريخية ، وذلك من جهة أن الأولى هي "منهج تكنيكي يكتفي بتسجيل الوقائع التاريخية وترتيبها في خط زمني متواصل" ¹⁶ ، و"نزعة متطرفة في دراسة التاريخ" أطرتها وضعية وفيلولوجيا القرن التاسع عشر، بينما الثانية بما هي اللحظة المتقدمة في مجال فهم التاريخ تمتلك القدرة على التحرر من ضغط التيولوجيا و الايديولوجيا معا.

historicisme التاريخانية أو التاريخوية أو التاريخوية الوضعية هي سواءً في التدليل لدى أركون على رؤية سلبية في فهم التاريخ ، فإذا كانت " التاريخية تنيح لنا أن تبقى دائما في مستوى التساؤل ، فإن التاريخانية تغذي الوهم بوجود اتجاه محدد أو معنى وحيد ومعروف للتاريخ" ¹⁷ ، وأن التاريخانية تدّعي أن الأحداث و الوقائع والأشخاص الذين وجدوا حقيقة و الذين دلت على وجوده وثائق صحيحة هي وحدها الموضوعات التي تقبل كمادة للتاريخ الحقيقيّ الفعلي ، سلبية هذه الرؤية . حسب أركون . تكمن في استبعاد العقائد والتصورات الجماعية التي تحرك الخيال من ساحة علم التاريخ ¹⁸ ، هذا العمى الذي تتخبط في التاريخانية لا ينجلي إلى ببصيرة التاريخية الأركونية؟؟ التي يعني " تبصّرها إعادة إدخال كل ما تمحوه التاريخانية عادة أو تتجنّب باحتقار" ¹⁹ .

عبر هذا النقد الذي يوجّهه للمدرسة الاستشراقية الغربية و الرؤية الرسمية المكرّسة للتاريخ على مستوى الفكر العربي الإسلامي الكلاسيكي يقدم لنا أركون نفسه في وضع " الرحيم بالعقائد" ، وهو الذي يتكفل بإعادة الاعتبار لها داخل الدرس التاريخي و التأكيد على دورها في " الديناميكية التاريخية" ، و ذلك عبر دعوته إلى تجاوز التاريخانية السلبية إلى التاريخية الايجابية ، و الحقيقة أن التاريخية الرحيمة بالعقائد والأديان كما يبشّرها أركون لم تكن أقل قسوة في أحكامها من ذلك التجاهل والإغفال الذي مارسه التاريخانية الوضعية تجاه كل ما هو ميتافيزيقي.

على العموم يمكن القول أن التاريخانية أو التاريخية رغم محاولات التمييز التعسفي بينهما هي موقف إبستمولوجي وأنطولوجي من الحقيقة والوجود ، فمن جهة كونها موقف أنطولوجي تعبر عن مركزية الإنسان واستعداد الميتافيزيقا ولهذا السبب نجد دعاة التاريخية أكثر إحتفاءا بفلسفات نيتشه و هيدغر وديريدا ، أما من جهة كونها موقف إبستمولوجي فهي تعبر عن نسبية الحقيقة وبشريتها ورفض المطلقيّات ولهذا السبب نجد تناغما بين النزعة التاريخية والهيرمنوطيقا المعاصرة ، بل لربّما كانت هذه الأخيرة هي أوج تطور الأولى.

بعد الوقوف على معنى التاريخية في السياق الثقافي الغربي والتصور النقدي الذي يبشّره أركون ، نحاول هنا استقصاء المعاني التي يرتضيها حسن حنفي . على سبيل المثال لا الحصر . لأسباب النزول لتكون مسوغا للقبول بمشروع " إنزال الوحي" من علياء الميتافيزيقا إلى الأرض وإخضاعه لمحك النقد التاريخي ، و أثناء ذلك نقف على مفهوم التاريخية لديه.

تاريخية حسن حنفي والتأسيس لميتافيزيقا مقلوبة

تحت تأثير الدرس النقدي التاريخي الذي مارسه سبينوزا على الروايات التوراتية، ووسطوة المقاربة الفيورباخية . الماركسية المادية للظاهرة الدينية يطالعنا حسن حنفي بمواقف نقدية جذرية للتصور الإيماني المكرّس تراثيا عن علاقة الوحي بالواقع ، ونعثر على هذه المواقف في مواضع كثيرة من أبحاثه و دراساته التي التئمت مشروعه الفكري العريض، وكان أثناء هذه المواقف يلتمس السند في مقولة "أسباب النزول" ومداخل أخرى من علوم القرآن كمقولة النسخ والتنجيم .

يعود اشتغال حنفي بعلوم القرآن ضمن الإشكاليات المتعلقة بهومومه الفكرية و القومية إلى أطروحته عن مناهج التفسير القرآني التي أرادها محاولة في أساسيات فهم النص ، لتظهر بعدها "أسباب النزول" عنوانا شارحا لدراسة تحت عنوان " الوحي والواقع: دراسة في أسباب النزول" ²⁰ . ويعلن هذا العنوان من البداية أن حسن حنفي يطرق مبحث أسباب النزول بغرض مسبق يتمثل في

الانتصار لأطروحة التاريخية المادية التي تجعل من البنية الفوقية تجليا للبنية التحتية، فيجعل من الوحي تجليا للواقع، وملامح الانتصار للواقع نلمسها في تعريفاته للوحي، كما نلمسها في الحكم المتسرع الذي أصدره حول مسألة النزول السببي و النزول الابتدائي، حينما قطع بالنفي أن تكون هناك آية من القرآن نزلت بمعزل عن مسبب واقعي، مما يعني السيطرة المطلقة للواقع في تشكيل النص، ولما يكون لعموم آيات القرآن أسباب حتمت نزولها فإن ذلك يعني انتفاء تايما للمبادرة الإلهية في التنزيل، ويفصح حنفي عما يطلبه من أسباب النزول عندما يحدد معناها في إثبات "أولوية الفكر على الواقع".

ولا يجد حسن حنفي غضاضة في الحصر التعسفي لأغراض جهود علماء القرآن في " بيان تاريخية النصوص نشأة وتطورا، والجمع و الترتيب مكانا وزمانا، و النزول و النسخ تطورا و نظاما" ²¹، بل ويذهب حنفي إلى تمديد خاصية التنجيم التي تحيل إلى مدة ثلاثة وعشرين عاما التي فيها في بحرهما تنزل الوحي، وذلك باعتباره نزول القرآن حلقة في سلسلة من تنزيلات سابقة حدثت منذ آدم عليه السلام، مروراً برسالات موسى وعيسى عليهما السلام، وهكذا لا نكون أمام تاريخية الوحي القرآني فقط، بل أما تاريخية الوحي العام (اللوح المحفوظ) ²².

تأسياً بموقف ماركس من الجدل الهيجلي يستمر تأكيد صاحب "التراث و التجديد" على تعالي الواقع وسلطته على النص في سياق مشروع القلب المتافيزيقي لمعادلة السماء والأرض يذهب إلى أن موقفه من ثنائية الوحي و الواقع يقلب الترتيب التنازلي (من النص إلى الواقع) الذي كرسه الفقهاء و الأصوليون، ليصبح تصاعديا (من الواقع إلى النص) كما تتطلبه الجدلية المادية الماركسية، هكذا يكون الوحي " قد نزل بناء على نداء الواقع، واكتمل بناء على تطوره و أعيدت صياغته طبقا لقدراته وأهليته على ما هو معروف في الناسخ و المنسوخ، و هي عملية جدلية الفكر و الواقع.... الواقع الذي ينادي الفكر و يطلبه و الفكرياتي مطورا للواقع و يوجهه نحو كماله الطبيعي، ثم يعود الواقع فينادي فكرا أدق و أحكم حتى يتحقق الفكر ذاته، و يصبح واقعا

مثالها يجد فيه الواقع الطبيعي كماله ، ليصل إلى القول أن " كلام الله إذن هو استجابة لكلام البشر"²³ .

تصبح أسباب النزول عند حسن حنفي هي المدخل الذي بولوجه تبين تاريخية الوحي ، مادام هذا الأخير ليس سوى "مجموعة من الأفكار والتصورات التي تصدر منها أنظمة وشرائع خرجت من الواقع بأسباب النزول، وتكيفت مع الواقع بالناسخ والمنسوخ" ، ثم ينتقل للجزم أن " ما عبر عنه القدماء باسم "أسباب النزول" لهو في الحقيقة أسبقية الفكر على الواقع ، ومناداته له وأن تعبيرهم "الناسخ والمنسوخ" ليدل على أن الفكر يتحدد طبقا لقدرات الواقع و بناء على متطلباته ، إن تراخي الواقع تراخي الفكر ، وإن اشتد الواقع اشتد الفكر"²⁴ .

ويبدو من خلال هذا الكلام أن حسن حنفي الذي كان يعيش عهد ازدهائه بالماركسية قارب القول "إن تراخي الواقع تراخي الوحي" وهو القول الذي سيقوله هو وغيره بملفوظات أخرى أكثر إفصاحا²⁵ ، وتستمر الأطروحة الماركسية ضاغطة ويرتفع منسوب الجرأة ليقول في نبذة خطابية نضالية " الحديث عن واقعية الإسلام إنما نشأ من هذا الموضوع وهو أسباب النزول، أسبقية الواقع على الفكر، وأولية الحادثة على الآية، المجتمع أولا و الوحي ثانيا ، الناس أولا و القرآن ثانيا، الحياة أولا و الفكر ثانيا"²⁶ .

ويتكرر تأكيده(حنفي) على ارتهان الوحي للواقع ليجعل منه مجرد صدى للمشكلات البشرية ، و على سبيل التعميم يقول أن "كل آية أو مجموعة من الآيات تمثل حلا لموقف معين في الحياة اليومية لفرد أو جماعة من الأفراد ، نصوص الوحي ليست كتابا أنزل مرة واحدة مفروضا من عقل إلهي ليتقبله جميع البشر، بل هو مجموعة من الحلول لبعض المشكلات اليومية التي تزخر بها حياة الفرد و الجماعة وكثير من الحلول قد تغيرت وتبدلت حسب التجربة و على مقدار الإنسان وقدرته على التحمل ، وكثير من الحلول لم تكن كذلك في بادئ الأمر معطاة من الوحي بل كانت مقترحات من الفرد أو الجماعة ثم أيدها الوحي وفرضها ... وهذا هو معنى "أسباب النزول" ²⁷ ولا يسري هذا الفهم من

حسن حنفي على الوحي فقط بل ينسحب على مصادر التشريع الأخرى كالسنة و الإجماع والاجتهاد.

لما تكون التاريخية عند حسن حنفي "هي تكوين الظاهرة نشأة وتطورا في مجتمع بعينه في ظروف محددة وفي مرحلة زمنية خاصة ، و الفكر ظاهرة و الظواهر الفكرية ظواهر اجتماعية ، و الظواهر الاجتماعية ظواهر تاريخية ، ولا شيء يحدث . بما في ذلك الفكر. إلا في المجتمع والتاريخ" ²⁸ ، فإن ما يلزم ضرورة عن هذا الفهم هو انتفاء وجود ما فوق التاريخ ، وبهذا تؤدي التاريخية من جهة تعميمها أداة تفسيرية لدراسة جميع الظواهر إلى السقوط في شرك النزعة الوضعية المتطرفة التي تنكر الميتافيزيقا ، وتعتبرها تفكير سلبيا خرافيا.

من سببية النزول إلى السببية المادية

لما تلقّف أمثال حسن حنفي تعبير "أسباب النزول" من لسان القدامى سقطوا في التسرع ولم يلتفتوا إلى الفرق الموجود بين الوحي بوصفه ظاهرة ميتافيزيقية لا يخضع لعلل تحتم وقوعه حتى وإن واكبته أو سبقته ، وبين الظواهر المادية الأخرى التي يمكن أن تخضع للتفسير بمبدأي السببية و الحتمية ، ولما نفحص المعنى الذي يوظف به تعبير أسباب النزول . في براءته الأولى . عند القدامى نجده يتحاشى القول بحتمية النزول كما يتوهمها المحدثون ، يكفي مثلا أن ننقل عن السيوطي . وهو في مقام شرح ما يقصد بأسباب النزول . حرصه على إبقاء العلاقة بين مفهوم "السبب" ونزول الآية أو الآيات في حدود الاقتران الزماني ليس إلا ، وهذا ما يفهم من قوله : " و الذي يتحرر في أسباب النزول أنه : ما نزلت الآية إيام وقوعه" ²⁹ ، وقبله وجدنا الزركشي يشرح مراد الصحابة و التابعين من تعبيرهم " نزلت الآية في كذا" بأن المقصود هو تضمن الآية للحكم الشرعي المتعلق بالموضوع أو الواقعة وليس " أن هذا كان السبب في نزولها .. و اعتبر أن ذلك من " جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما يقع"

30

ولعل لما يذهب إليه الزركشي والسيوطي من تدقيق وضبط لدلالة السببية داخل هذا التعبير ما يبرره في تلك المشكلات الفقهية والتفسيرية التي طرحها الفهم الخاطئ لمقولة "سبب النزول" في زمن الصحابة والتابعين ويعاد طرحها الآن.

إذا كان هذا هو المعنى المُشبع بالتنزيه والتفديس عن الواقعية والمادية الذي يلتزمه القدامى لتعبير "سبب النزول" فإن حسن حنفي يتباعد به إلى حدود يصبح فيها أداة للتدليل على ارتهان الوحي للواقع المادي ، وهذا التخريج الوضعاني لأسباب النزول في ادعائه للعلمية والموضوعية متهافت من جهة أنه يخضع في فهمه لظاهرة ميتافيزيقية تاريخية لتصورات جاهزة عن طبيعة العلاقة بين الطواهر ، ونشير هنا بالتحديد إلى التصور الذي كرسته الفلسفة الوضعية الكونتية التي تنبذ بإحتقار كل ما له صلة بالميتافيزيقا ولا تعترف إلا بما هو مادي.

ما نخلص إليه من هذه الشواهد المقتطفة من كتابات حسن حنفي حول أسباب النزول وعلاقتها بالنزعة التاريخية التي استبدت به هو أنه مارس تعسفا فاضحا في تحميل مفاهيم تراثية لدلالات فلسفية لها هي الأخرى مشروطيتها التاريخية النسبية التي يتعذر تنزيلها على قضايا وموضوعات الفكر الإسلامي ، و هو بهذا الصنيع أسس لميتافيزيقا مقلوبة ، سماؤها الواقع وأرضها الفكر.

خاتمة

تقود النزعة التاريخية التي ينافح عنها التيار العلماني بمختلف مرجعياته الفلسفية والفكرية عبر تلبيس "أسباب النزول" لبوس التاريخية الساذجة" إلى تمييع قداصة النص القرآني وإبقائه تحت رحمة المتغيرات الاجتماعية والنفسية للمتعاظين معها ، فإذا كان في تقادم العلوم الإسلامية الكلاسيكية والحاجة الملحة لتجديدها حتى تستوعب أسئلة المسلم المعاصر ما يبرر الإلماع لدور الواقع في التنزيل وضرورة اعتباره في دراسة النص واستثماره . هو أمر أقره قدامى الفقهاء والعلماء في مصنفاتهم قبل المتأخرين . فإن ما لا يبرر، لامنطقيا ولا واقعا هو الارتهان إلى حاكمية واقع لا يستقر ، واقع تتدخل في حيآكته

انفعالات و هواجس البشر، و تتصارع فيه نزواتهم ، فكيف تتحقق حاجة البشر إلى الانتظام و السكينة ؟؟ كيف تتحقق هذه الحاجة . التي تنتفي أن تكون سياسية محضة ، بل هي سيكولوجية أخلاقية بالأساس . عندما يجعل من الواقع ضابطا في انتاج المعنى؟؟، إن من شأن هكذا فلسفة عن النص مهما كانت مرتكزاتها ، تراثية أو عصرية أن تنسف الوظيفة الأساسية للدين.

بالعودة إلى مقولة "أسباب النزول" ننقل نصا قويا للشافعي جاء فيه نقضا منطقياً لمبدأ حاكمية الواقع على النص الذي يؤطر القراءات المعاصرة للنص القرآني " لا يصنع السبب شيئا، وإنما تصنعه الألفاظ ، لأن السبب قد يكون ، ويحدث الكلام على غير السبب، ولا يكون مبتدأ الكلام الذي له حكم فيقع ، فإذا لم يصنع السبب بنفسه شيئا ، لم يصنعه بما بعده ، ولم يمنع ما بعده أن يصنع ما له حكم إذا قيل " ³¹ ، يتضح من هذا النص الذي لا يستغلق على أمثال حسن حنفي أن الشافعي يبقى العلاقة في الوجود بين الملفوظ و المتحقق حسيا احتمالية وليس قطعية ، و أن حصول التلازم بين السبب و النص في مناسبة ما لا ينفي في ذاته إمكانية ارتباط ذات النص بسبب آخر ، أو ارتباط ذات السبب بنص آخر، مما يقوض أي تفسير حتي لـ"واقعة الوحي" كذلك الذي يستلهمه معظم تاريخيو الدراسات القرآنية المعاصرة من مناهل غريبة ، كالسيمائيات و التحليل النفسي و الماركسية و الفينومينولوجيا و التفكيكية و الهيرومنوطيقا و النقد الثقافي ، و هي المتشكلة في سياقات ثقافية مختلفة و تخضع لمراجعات و انتقادات مستمرة ، بينما يروج لها من طرف بعض مفكرينا بوصفها طريقا للتنوير و التحرير من "السياجات الدغمائية"؟؟ ، السؤال الذي يطرح : ما الضامن أن لا تكون الفضاءات الرحبة التي يعد بها التاريخيون هي طعم نحو عدمية تغدو معها العودة لتلك "السياجات الدغمائية" حلما صعب المنال.

المراجع

- 1 - لمزيد من التفصيل حول الجدل الذي أثير بين القدامى بصدد قابلية الأحكام الشرعية للتعليل ينظر : محمد عابد الجابري / بنية العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 9 ، 2009 ، ص 519 و ما بعدها ، و على سبيل المثال يسجل الجابري " رفض ابن حزم أن تكون الأحكام الشرعية صادرة عن الله لعلل" ونقلًا عن (بنية العقل العربي ص 519) نجد ابن حزم في "الإحكام في أصول الأحكام" يقول "إن العلل كلها منفية عن الله تعالى ، و عن جميع أحكامه البتة ، لأنه لا تكون العلة إلا المضطر".
- 2 - لمزيد من التفصيل حول المواقف التي تشكلت حول المشكلة ينظر المرجع السابق (بنية العقل العربي) ص 193 و ما بعدها.
- 3- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تخ محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة ، القاهرة، د ط ، د ت ، ص 101.
- 4- بسام الجمل ، أسباب النزول، المؤسسة العربية للتحديث الفكري و المركز الثقافي العربي - بيروت / الدار البيضاء، ط 01، 2005 ، ص 79.
- 5- التنزيل للدلالة على التكثرير و هو ماله علاقة بمدة ثلاثة و عشرين عاما التي ظل طوالها الوحي ينزل على الرسول.
- 6- سورة الاسراء ، الآية 105.
- 7- ينقل بسام الجمل في دراسته المذكورة آفا عن الواحدي النيسابوري (المتوفى سنة 1075م) في مقدمة كتابه " أسباب نزول القرآن " أن ما حواه إلى وضع هذا المصنف هو الاختلاق و الافك الذي داخل مرويات أسباب النزول.
- 8- بسام الجمل ، أسباب النزول ، ص 51.
- 9- المرجع نفسه ص 57.
- 10 - تتفاوت نسب الآيات التي روّيت لها أسباب نزول من مصنف إلى آخر فهي عند الطبري في تفسيره 9.04% ، و عند الرازي في تفسيره 7.21% ، و عند الواحدي النيسابوري كتابه "أسباب النزول" 10.08% ، و عند السيوطي في كتابه "الباب المنقول في أسباب النزول" 13.74% من مجموع 6236 آية في القرآن الحكيم : أنظر : بسام الجمل - أسباب النزول مرجع سابق ص 121.
- 11 - الهادي الجطلابي ، قضايا اللغة في كتب التفسير ، كلية الآداب سوسة - تونس نقلا عن بسام الجمل المرجع السابق ص 34.
- 12- عبر هذا التخرّج اللغوي نجد أركان يميّز فيفاضل بين التاريخية و التاريخية بقوله " من وجهة نظر لغوية فإن اللاحقة (ité) تدل على كل ما له خاصية الحقيقة الجوهرية (المادية) ، في حين أن اللاحقة (isme) تسجنا لا محالة في نظام مبني من قبل العقل " أنظر :محمد أركون ، الفكر الإسلامي قراءة علمية ، مركز الائمة القومي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط 2، 1996 ، ص 116.
- 13- محمد أركون ، القرآن من التفسير الموروث إلى الخطاب الديني ، ترجمة و تعليق هاشم صالح ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 2 ، 2005 ، ص 47.

-
- 14 - محمد آرکون ، الفكر الإسلامي قراءة علمية ، مرجع سبق ذكره ، ص 116
- 15 - محمد آرکون ، القرآن من التفسير الموروث إلى الخطاب الديني ص 48.
- 16 - الفكر الإسلامي قراءة علمية ، مرجع سبق ذكره ، ص 123.
- 17 - المرجع السابق ، ص 117.
- 18 - القرآن من التفسير الموروث إلى الخطاب الديني ، ص 49.
- 19 - الفكر الإسلامي قراءة علمية ، ص 123 .
- 20 - هذه الدراسة منشورة ضمن كتابه "هموم الفكر و الوطن" ، ج 1 ، دار قباء القاهرة ، ط 1 ، 1996.
- 21 - حسن حنفي ، هموم الوطن ، ج 1 ، دار قباء القاهرة ، ط 1 ، 1996 ، ص 73.
- 22 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- 23 - حسن حنفي ، هموم الفكر و الوطن ، ج 1 ، دار قباء القاهرة ، ط 1 ، 1996 ، ص 26.
- 24 - حسن حنفي ، التراث و التجديد (موقفنا من التراث القديم) ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع - بيروت ، ط 5 ، 2002 ، ص 15.
- 25 - نشير هنا إلى ما ذهب إليه نصر حامد أبو زيد من اعتبار القرآن منتجا ثقافيا ، و يعتبر أبو زيد امتدادا لتاريخية حسن حنفي الممتدة إلى طه حسين عبر أمين الخولي و أحمد خلف الله.
- 26 - حسن حنفي ، هموم الفكر و الوطن ، ص 20.
- 27 - حسن حنفي ، التراث و التجديد ، مرجع سابق ، ص 135 ، 136.
- 28 - حسن حنفي ، هموم الفكر و الوطن ، ص 79 ، 80.
- 29 - جلال الدين السيوطي ، الإبتقان في علوم القرآن ، المجلد الأول ، دار نوبليس ، بيروت ، ط 1 ، 2007 ، ص 110.
- 30 - نقلا عن المرجع السابق ، ص 110.
- 31 - نقلا عن :عماد الدين الزين " الأسس الفلسفية لأرخنة النص : رؤية نقدية في المقولة" ضمن مجلة الأثر ، العدد 21 ديسمبر ، 2014 ، ص 25.